الحرب الخاطفة

في الحروب النبوية

الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

يتردد في الحروب الحديثة إسم « الحرب الخاطفة » ، على أنها مما ابتكره قواد هذا العصر في أساليب الحرب ، واخترعوه في نظام القتال ، فهي منقبة من مناقبهم ، ومفخرة لهم لم يسبقهم أحد إليها ، وليس هذا من الحق في شيء ، لأن نبينا الأعظم محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي ابتدع هذا النظام في القتال ، وكان عنده سُنَّةً متبعة في حروبه ، وتقليداً يأخذ به في الهجوم على أعدائه ، لأن هذا النوع من الحرب لا يكون إلا في الحروب الهجومية ، فهي التي يمكن أن يؤخذ فيها العدو على غِرَّة ، وأن يقتحم عليه داره قبل أن يستعد للقتال ، فيستولي عليه الدهش ، ويأخذه الرعب والخوف ، ولا يكلف الجيش المهاجم عناء في القتال ، ولا تضحية في الجنود ، ولا يشترى النصر فيه بالثمن الفادح ، ولا ينال بالدماء الغزيرة ، فيشاب الفرح فيه بالحزن ، ويمكر صفوه بالثمن الفادح الذي اشترى به .

والحرب تتبعها حروب ، فإذا لم يقتصد القائد في دماء جنوده ، وإذا لم يختر الأسلوب الذي يشترى فيه النصر بأقل ثمن ، وإذا جازف بدماء جنوده ولم يحسب فيها حساباً للمستقبل ، لا يلبث أن يأتي عليه يوم تنهك فيه قواه ، ويخسر فيه ما ربحه من النصر في حروبه .

ولهذا كله آثر النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الحرب ، حرصاً على أصحابه أن تستأصلهم تلك الحروب المتوالية ، وكانوا بين أعدائهم كقطرة في بحر ، وكان لهم أباً رحيماً ، وصاحباً رؤوفاً (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ولم يكن بالقائد الذي يرى أن يأمر فيطاع ، وينظر إلى جنده نظرة الرئيس إلى المرءوس ، لا نظرة الأب الرحيم إلى أبنائه ، والصاحب الرؤوف إلى أصحابه .

ولا غرو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مبتدع هذا النوع من الحرب ، لأنه كان يجمع العظمة كلها في شخصه الكريم ، فكان الرسول الأعظم بين الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والقائد الأعظم بين قادة الجيوش ، والبطل الأعظم بين أبطال الحروب ، والمصلح الأعظم بين رجال الإصلاح ، والمشرع الأعظم بين رجال التشريع ، بلغ الغاية في كل نواحي العظمة ، ولم يصل إلى درجته فيها عظيم من العظماء .

وهذه كانت سُنَّتُهُ في حروبه كما ذكرها أصحاب السير ، ذكروا أنه كان إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها ، فيقول مثلا إذا أراد غزوة حُنَيْن : كيف طريق نجد ومياهها ؟ ومن بها من العدو ؟ ونحو ذلك .

وكان يقول : الحرب خدعة .

وكان له عيون وأرصاد بين أعدائه يأتونه بأخبارهم أولا بأول ، فإذا بدرت منهم بادرة حرب كان خبرها عنده قبل أن يتهيأوا لها ، وإذا بجيشه قد أتاهم من حيث لا يشعرون ، وأحاط بهم من كل ناحية ، وكان يستحب القتال أول النهار وهم لا يزالون في غفلتهم ، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، وتهب الرياح . فيأوى السكان إلى منازلهم ، ويأخذهم أيضاً في هدوئهم وغفلتهم .

وتلك هي الحرب الخاطفة بعينها ، وذلك هو أسلوبها الآن في الحروب الحديثة ، أسلوب المفاجأة ، ومداهمة بلاد العدو وهو في غفلة ، وإخفاء مقصد الجيش المهاجم حتى يصل إليه قبل أن يعلمه أحد ، والتهويل في قوته حتى يملأ الرعب منه كل نفس ، ويأخذ الخوف منه قلوب الأعداء .

ومن أظهر الحرب الخاطفة في الحروب النبوية حرب الفتح الأعظم ، وهو فتح مكة موطن المسجد الحرام ، فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذها بحرب خاطفة يباغتها فيها مباغتة ، ويدركها قبل أن تحشد له الجيوش ، وتجمع له حلفاءها من القبائل ، فيستولي عليها من غير أن يقيم فيها حرباً ، أو يسفك فيها دماً من أصحابه أو من أهلها ، لأنها بلد مُقدَّس لا يحل فيها سفك الدم إلا بقدر الضرورة ، وفيها الكعبة ، والمسجد الحرام ، والحرب إذا اشتدت قد تصيبهما بتخريب أو ضرر .

فتجهز النبي صلى الله عليه وسلم للسفر ، ولم يخبر أحداً بقصده إلا أبا بكر رضي الله عنه ، ووضع حراساً على رؤوس الطرق الموصلة إلى مكة ، يسألون من يسافر فيها عن مقصده وغايته مبالغة في الاحتياط ، وقد كان لأهل مكة جواسيس وأنصار في المدينة من المنافقين ، فوضع الحراس على تلك الطرق حتى لا يمكن أحداً

منهم أن ينقل خبر ذلك الاستعداد لهم ، فلم يكن يؤذن بالسفر فيها إلا لمن يوثق فيه من المؤمنين المخلصين ، ومن لا يرى أنه جاسوس إذا سافر فيها واصل السفر إلى مكة ، وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه مراقباً على أولئك الحراس ، يتعهدهم وقتاً بعد وقت ، حتى يقوموا بحراستهم على أكمل وجه ، ولا يغفلوا عنها أو يتساهلوا فيهـــا ، وقد اختير عمر لذلك لما عرف عنه من الشدة واليقظة ، فكان خير من يعهد إليه في القيام بذلك الأمر على أكمل وجه ، والإتيان بتلك الحراسة في غاية ما يكون من الدقة .

وقد قام الحراس بما عهد إليهم خير قيام ، ولم يمكن أحداً من جواسيس قريش في المدينة أن يفلت منها إلى مكة ، اللهم إلا جاسوسة واحدة كانت جارية لحاطب بن أبي بَلْتَعَةَ ، وكان من المؤمنين المخلصين ، ولكنه كان له أهل ومال بمكة ، فأراد أن يتقرب إلى أهلها ليحافظوا على ماله وولده فكتب إليهم كتاباً يخبرهم فيه باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم للغزو ، وأنه ربما يقصدهم به ، وقد أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأمر تلك الجاسوسة ، فانتدب لها ثلاثة من كبار أصحابه اهتماماً بأمرها ، ليدركوها قبل أن تصل إلى مكة ، وهم : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود ، فانطلقوا مسرعين حتى أدركوها بروضة خَاخ ، وقاموا بتفتيشها حتى عثروا على ذلك الكتاب في عِفَاصِهَا ، فرجعوا بها إلى المدينة ، وقضوا على هذه المحاولة التي أفلتت من تلك الحراسة .

وتم تجهيز الجيش الذي أعده النبي صلى عليه وسلم لفتح مكة ولم يعلم أحد ماذا أُعِدَّ له ، وكان عدده عشرة آلاف ، ثم سار به حتى وصل مَرَّ الظَّهْرَان ، فأمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، مبالغة في تهويل أمره ، وإلقاء الرعب في قلب من يراه ليلا ، وكانت قريش قد بلغها أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته ، فأرسلت أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيْل بن ورقاء يلتمسون خبر ذلك الجيش ، فلما وصلوا مر الظهران ورأوا تلك النيران قال أبو سفيان : ما هذا ؟ لكأنها نيران عرفة . فقال بديل بن ورقاء : هي نيران بني عمرو . فقال أبو سفيان : بنو عمرو أقل من ذلك .

ثم رآهم نفر من حرس المسلمين فأتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم أبو سفيان ، وقد أوقفه عند خَطْم[1] الجبل ، وجعل الجيش يمر عليه كتيبة بعـــد كتيبة ، ليرى عظمته وقوته وحسن نظامه ، وينظر من اجتمع فيه من القبائل التي لا تحصى ولا تعد ، ويخبر أهل مكة بما رأى من ذلك ، فيملأ الرعب قلوبهم ، ولا يجدوا فائدة في مقاومة ذلك الجيش ، ثم قسم الجيش إلى قسمين ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كُدًى ، ودخل هو آمن من أعلاها من كَدَاء ، ولم يشهر أهل مكة إلا وجيش المسلمين يحيط بهم من كل جانب ، وأصوات الأمان تتجاوب من هنا وهناك : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ويسمع أهل مكة أصوات الأمان فتأخذ بهم إلى الاستسلام ، ويدخلون دورهم فيغلقونها عليهم ، ومن لا يدخل داره يدخل المسجد أو دار أبي سفيان ، وتفتح مكة عاصمة الحجاز في لحظات ، ولا يذهب في فتحها إلا ما لا يذكر من الدماء ، وما كان أحد يظن بعد تلك الحروب الطويلة أن تفتح بهذه السهولة ، ولكنها الحرب الخاطفة التي ابتدعها النبي صلى الله عليه وسلم .

عبد المتعال الصعيدي

(١) خطم الجبل : أنفه ، وهو شيء يخرج منه يضيق به الطريق .

إدارة الهندسة الفنية بالمنوفية

تقبل العطاءات لغاية ظهر ٢٢ اثنين وعشرين ديسمبر سنة ١٩٤٥ عن إصلاح دورة مياه مسجد ناحية شبرا قباله مركز قويسنا والشروط والمواصفات بالإدارة بمبلغ ٧٠٠ مليم بخلاف مائة مليم بريد وتطلب على ورقة دمغة والاطلاع على الرسومات بالإدارة أو بمصلحة الشئون القروية بالقاهرة ن ٤١ شارع نوبار باشا .

٤٥٥٩